التُّراثُ المعْمَاريُّ الدِّينيُّ بِتِلِمسَان مُنْذ عَصْرِ المُرَابِطين
وَدَوْرُهُ في التَّواصُل الحَضَاريِّ بَيْنَ شَرقِ العَالمِ الإسْلاَميِّ وغَرْبِه

دكتور/ عادل محمد زيادة
كلية الآثار – جامعة القاهرة
مدير عام الدراسات والبحوث والنشر العلمي
بالمجلس الأعلى للآثار بالقاهرة

مقدمـــــــــــــــــــــــــــة

كانت تلمسان في عهد المرابطين مركزاً للدراسات الفقهية والكلامية واشتهر فيها عدد غير قليل من العلماء البارزين، وقد اهتمت الدولة المرابطية بالجانب العمراني وأولته عناية فائقة يشهد عليه التراث المعماري الديني الباقي حتى عصرنا الحاضر[١]، ومع أن المصادر التاريخية تذكر أن الفن المعماري قبل المرابطين كان يمتاز بالطابع البربري البيزنطي، إلا أنه بقدوم المرابطين وضمهم الأندلس إلى المغرب امتزج هذا الفن بالفن الأندلسي المتميز، وأُنتج فناً معمارياً خليطاً بين الطابع المغربي والأندلسي العربي حيث ظهر هذا المزج في كل المباني الأثرية بالبلاد وخاصة بمدينة تلمسان، وكان للوحدة السياسية التي حققها المرابطون بين الأندلس والمغرب أثراً فعالاً على المباني الدينية والمدنية على السواء حيث جلب أمراء المرابطون المهندسين والصناع من الأندلس واعتمدوا عليهم في إقامة منشآتهم المعمارية [٢].

وبالرغم من أن تلمسان عاشت فترات من الاضطراب السياسي والاجتماعي في عصر الدولة الزيانية إلا أن المباني الدينية قد شهدت نشاطاً ملحوظاً إلى جانب ظهور عدد هائل من العلماء الذين تركوا تراثاً علمياً كبيراً كان له تأثيره على الحركة العلمية والعمرانية في تلمسان، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك إقبالاً على تشييد المؤسسات العلمية والجوامع والزوايا والمدارس التي شيدت على فترات متعاقبة، وقد ظلت مدينة تلمسان طوال تاريخها على مر الدول المختلفة تحظى باهتمام الحكام والأمراء في النواحي العمرانية والمعمارية مما نتج عنه امتلاكها لتراث معماري حضاري يعكس مدى غنى وتفوق هذه العمائر في كافة النواحي الفنية والمعمارية [٣].

ونظراً لقلة الدراسات المقارنة بين التأثيرات المتبادلة بين التراث المعماري في شرق العالم الإسلامي وغربه وقلة إنتاج الباحثين وعدم تعرضهم لمثل هذه الدراسات وما لهذا الموضوع من أهمية بين الدراسات الأثرية والحضارية سيتناول البحث دراسة العمائر الدينية الباقية بتلمسان منذ عصر المرابطين من الناحية المعمارية والفنية، وإظهار التأثيرات المختلفة والعلاقة بين العمائر الدينية المغربية بصفة عامة وبين نظيراتها بمدن المشرق الإسلامي مثل القاهرة ودمشق، وتوضيح مدى التواصل الحضاري بين هذه المدن في ضوء التبادل الفني والمعماري من خلال ما تبقى بها من عمائر دينية أثرية .

١– تلمسان والتنوع التاريخي لتراثها المعماري الديني

[١] سيدي عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج١، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٦١م، ص١٣٧ .

[٢] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، ١٩٨٤م، ص٣٤٠ .

[٣] عمارة عمور، الموجز في تاريخ الجزائر، الطبعة الأولى، دار الريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢، ص٧٩ .

نظراً لضخامة المخزون المعماري الأثري لولاية تلمسان فقد أصبحت من أغنى الولايات الجزائرية من حيث التراث المعماري الإسلامي الذي يعود إلى العصر المرابطي مروراً بالعصور التالية له حتى نهاية العصر العثماني ونتيجة تعاقب أجناس مختلفة على تلمسان من بربر وعرب وأسبان اكتسبت المدينة تنوعًا معمارياً وفنياً واسعَ النطاق، وتحفل المدينة بالعديد من المساجد والمدارس التي مثلت منارات للعلم الإسلامي وتعلم فيها الكثيرون عبر الأجيال المختلفة[٤].

دخلت تلمسان وما حولها ضمن نطاق مملكة المرابطين الذين قاموا بتأسيس مدينة جديدة بالمكان الذي نزلت به جيوشهم غرب مدينة أغادير وذلك بعد محاصرتهم لها عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، وأطلقوا عليها اسم "تقرارت" وهي كلمة بربرية بمعنى "المعسكر". وكان أول ما قامت به الدولة الجديدة هو بناء جدار للمدينة لحمايتها، ثم شُرع في بناء المسجد الكبير الذي انتهي بناؤه سنة ٥٣١ه/ ١١٣٦م . وأخذت المدينة الجديدة في التوسع مع الوقت لتلتقي مع جارتها لينتج عن اندماجهما تدريجياً مدينة كبرى مع تلمسان القديمة والتي أصبحت في هذه الفترة من أهم المراكز المتخصصة في علوم الفقه، ولكن لم يبق من كل مباني مملكة بن تاشفين سوى الجامع الكبير الذي بناه علي بن يوسف [٥].

ويظهر مدى اهتمام هذه الدولة بتشييد العمائر الدينية من خلال ما تبقى من آثار معمارية لها، كما يفند المقولة السائدة عن عدم اهتمامها بالعمارة والفن لكونها دولة بدوية صحراوية بعيدة عن فن العمارة والإبداع، وهي الدولة التي لها الفضل الكبير على المغرب والأندلس على السواء في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والعمرانية، وآثارها مازالت قائمة تشهد على حضارتها المتميزة التي تجمع بين الحضارة المغربية والأندلسية [٦] .

ونظراً للتواصل الحضاري بين مسلمي المغرب ومسلمي الأندلس طرأت على النواحي الفنية المعمارية في عهد المرابطين تطورات ملموسة بسبب الابتكارات الجديدة على فنون العمارة والزخرفة ساهم فيها الفنانون والمعماريون الذين استُقدموا من قرطبة، وقد ظهرت هذه التأثيرات بشكل واضح في الجامع الكبير بتلمسان، وكذلك كل المباني الدينية والمدنية التي شُيدت خلال العصور التالية بتلمسان [٧] .

---

[٤] يحي بن خلدون، بغية الرواد، تحليل و تعليق عبد الحميد حاجيات، ج١، المكتبة الوطنية، ١٩٨١، ص١٣٠ .

[٥] ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر)، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع ٢٠٠١م، ص٧٨ .

[٦] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص١٥٦ .

[٧] عبد العزيز بن عبد الله، معطيات الفن الإسلامي في المغرب، مجلة المناهل، العدد الثالث، لسنة ١٩٧٥م، ص٥٤.

قام المهدي ابن تومرت بعد ضعف المرابطين بالاستيلاء على ملكهم، ودخل عبد مؤمن مدينة تلمسان سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، بعد تدمير أسوارها، ونظراً لأهمية موقعها الاستراتيجي أصبحت عاصمة المقاطعة الشرقية لمملكة الموحدين. وقام الموحدون ببناء القلاع والقصور، كما قاموا ببناء الخانات والقيساريات، ونشطت في أيامهم التجارة ما بين أفريقية وشمال المتوسط. مما أسهم في تطور تلمسان معمارياً واقتصادياً [٨].

وجدير بالذكر أن الموحدين لم يتخلصوا نهائيا من التأثير البربري في عمائرهم، شأنهم في ذلك شأن المرابطين، فظلوا يهتمون بعنصر القوة والضخامة في مبانيهم، مع التأثر الواضح أيضاً بالفن الأندلسي وزخارفه، ومن ثم امتازت آثار عبد المؤمن بعظمتها وضخامتها، و لم يمنع هذا من تأثر الموحدين بباقي المؤثرات الفنية السائدة كتلك التي كانت موجودة بعمائر القيروان عند فتحهم للشمال الإفريقي، تلك العمائر التي كانت تجمع بين الفن المصري والفن العراقي[٩].

كما يمكننا ملاحظة أثر المعماريين الأندلسيين وبصماتهم على عمائر المغرب في هذا العصر وما بعده بوضوح، إذ كان لسيطرة الموحدين على الأندلس أثر كبير على فنهم المعماري حيث أضفى عليه طابعاً خاصاً وحقق بتناسق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب، وتجلى ذلك في روائعه المعمارية والفنية التي تظهر في أبهى صورها في مساجد مراكش والرباط وباقي المنشآت الأخرى[١٠] ومن أروع ما بقي لنا من هذا العصر مسجد الكتبية بمراكش الذي بُني على غرار مسجد الخيرالدة بأشبيلية، والذي جمع بين الطرازين الأندلسي والمغربي[١١] .

وصفوة القول أن الدولة الموحدية قد تمكنت من مواصلة البناء والتشييد الذي وضعت نواته الأولى الدولة المرابطية لإقامة صرح الحضارة المغربية وترسيخ تاريخها، مما يدل على عنايتهم بالنواحي المعمارية والفنية وتهيئة الأسباب لازدهارها وتطويرها حسب متطلبات العصر وحاجياته [١٢] .

---

[٨] محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، الطبعة الثانية، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، ١٩٧٧م، ص٥٦ .

[٩] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، ص٨٩ .

[١٠] عبد العزيز بن عبد الله، معطيات الفن الإسلامي، ص٥٦.

[١١] عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفن في عهد الموحدين، مجلة البينة،العدد التاسع، لسنة ١٩٦٣، ص٧١.

[١٢] يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٨م، ص٤٩٥ .

وبدأ حكم الدولة الزيانية لتلمسان منذ عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وكان النهوض بها والعمل على جعلها واحدة من حواضر الدولة الإسلامية هو الشغل الشاغل لسلاطين تلك الدولة، فبدءوا يجذبون إليها الوجوه الفكرية والعلمية وخاصة من الأندلس، كما عملوا على خلق مناطق حضرية وعمرانية جديدة بجوار النسيج العمراني القديم، ويعتبر السلطان يغمراسن بن زيان هو المؤسس الحقيقي للدولة فقد استطاع أن يظهر على الساحة السياسية في المغرب الأوسط وجعل من تلمسان قاعدة لحكمه الفتي ومقر إدارته [١٣] ، هذا إلى جانب اهتمامه الكبير بالعمارة والعمران، ومن أهم الآثار الإسلامية المتبقية من عهده مئذنتا الجامع الكبير ومسجد أغادير اللتين انتهى العمل من بنائهما عام ٦٥٢ه/١٢٥٤م [١٤] .

وخلال مرحلة تثبيت الدور التجاري الذي لعبته تلمسان في الفترة من٦٨١: ٧٠٣هـ/١٢٨٢: ١٣٠٢م امتد عمران المدينة جهة الغرب وتم خلالها تشييد مسجد سيدي بلحسن سنة ٦٩٦ه/١٢٩٦م والذي كان بمثابة نواة لحي جديد وسيط نشأ غرب المسجد [١٥] ، ثم كانت مرحلة التوسع العمراني التي شهدتها تلمسان في عهد أبي حمو موسى الأول في الفترة من ٧٠٧ – ٧١٨هـ/١٣٠٧-١٣١٨م، تلك الفترة التي تم فيها استدعاء ممثلي القبائل للمشاركة في تدشين مسجد المشور سنة ٧١٠ه/١٣١٠م [١٦] .

بُنيت ضاحية جديدة دخلت فيما بعد ضمن النسيج العمراني لتلمسان ونقصد بها مدينة المنصورة التي أسسها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب في الفترة من ٦٩٩ : ٧٠٧ه/ ١٢٩٩: ١٣٠٧م وكانت تقع غرب تلمسان وقد شيد بها السلطان المريني قصراً ومسجداً كبيراً، ومبانٍ للقضاء وبعض مباني الخدمات الأخرى، كما يرجع الفضل إلى المرينيين في بناء المسجدَين الباقيين حتى الآن في تلمسان مسجد سيدي بُومدين، ومسجد سيدي الحلوي. ومع ذلك تحولت المنصورة في النهاية إلى أطلال وخراب على يد الزيانيين [١٧].

وقد خضعت تلمسان للأتراك العثمانيين منذ عام ٩٦٣ه/١٥٥٥م وبسيطرتهم عليها كانت بداية عهد جديد لم يكن بالأفضل في تاريخها حيث أنها لم تعد سوى مكان لتمركز القوات العسكرية ومكاناً لجمع الإتاوات

---

[١٣] عمارة عمور، الموجز في تاريخ الجزائر، ص٧٩ .

[١٤] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج١، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ٢٠٠٢، ص٤٦ .

[١٥] William et Georges (Marçais), les monuments Arabes de Tlemcen, librairie Thorin, Paris 1903, p 185.

[١٦] تقي الدين بن زيد الخزاعي، تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد، تحقيق طه الولي، المكتب الإسلامي، بيروت١٩٨١، ص١٩٦ .

[١٧] عبد العزيز محمود لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان-دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها، مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة ٢٠٠٦م، ص١١٣.

والضرائب من السكان، مما أدى إلى انحطاطها وتدهورها، لتخسر تلمسان نهائيا وبلا رجعة مع الأتراك سيطرتها السياسية وبالتالي قوتها الاقتصادية [١٨] .

٢- مساجد تلمسان ومميزاتها المعمارية

حاولت كل دولة من الدول التي تعاقبت على حكم تلمسان طوال العصر الإسلامي أن تطبع العمائر الدينية بهذه المدينة بطابعها وذوقها المعماري والفني, وكان بناء المساجد من أهم ما كانت تعنى به تلك الدول، لذلك ظل الطابع الديني مسيطراً على هذه المدينة طوال عصورها، واكتسبت المدينة إرثاً فنياً معمارياً يحمل طابع العمارة المغربية الأندلسية التي أثرت وتأثرت بعمارة وفنون مدن الشرق الإسلامي[١٩] ، وتحفل مدينة تلمسان بالعديد من المساجد التي مثلت منارات دينية وعلمية طوال العصر الإسلامي، فقد انتشرت المساجد بها على مدى تاريخها الإسلامي، وتذكر لنا المصادر التاريخية أن عدد مساجد تلمسان بلغ حوالي ستين مسجداً [٢٠] ولكن لم يتبق منها إلا عدد يسير يرجع لعصور مختلفة، نذكر منها الجامع الكبير، ومسجد سيدي أبي الحسن، ومسجد أولاد الإمام، ومسجد سيدي بومدين وأخيراً مسجد سيدي الحلوي . ويعد الجامع الكبير من أقدمها وأهمها .

تأثرت العمارة الدينية بتلمسان خلال العصر الإسلامي بفنون العمارة الأندلسية، إلى جانب التأثيرات المشرقية، وبدأ هذا التأثير مع ظهور المرابطين وضمهم للأندلس إلى المغرب حيث امتزج فن العمارة المرابطي بالفن الأندلسي المتميز، وأنتج فناً خليطاً بين الطابع المغربي والأندلسي العربي، وقد ظهر هذا المزج في العمائر الدينية على وجه الخصوص، وفتح المرابطون بذلك أبواب المغرب على مصراعيه أمام الحضارة الأندلسية، وتدفقت التأثيرات الأندلسية بعد ذلك فبدأت تظهر في المدن المغربية وخاصة مدينة تلمسان. لذلك يمكن اعتبار عصر المرابطين عصر الفن الأندلسي المغربي ؛ إذ يبدو الطابع الأندلسي في زخرفة المساجد وخاصة محاريبها[٢١] ، ويتجلى ذلك بوضوح فيما تبقى من عمارتهم بتلمسان والتي يمكن أن نوجزها في الآتي .

١/٢ الجامع الكبير

---

[١٨] عمارة عمور، الموجز في تاريخ الجزائر، ص٣٣ .

[١٩] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، ص٢٥٤ .

[٢٠] أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، ١٩٨١، ج١، ص ١٣٠ ؛ محمد بن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا بيجيرا، الجزائر ١٩٨١، ص١٧٥؛ أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي الرباط، ١٩٦٨ ، ص١١.

[٢١] إبراهيم حركات،المغرب عبر التاريخ، ج١، ص٢٢١.

بناه المرابطون سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م على يد علي بن يوسف بن تاشفين، وأضيفت إليه المئذنة سنة ٦٣٤ه/١٢٣٦م على يد يغمراسن بن زيان[٢٢] ، وهو أشهر مساجد تلمسان وأكبرها، ويُعد جامعة إسلامية على غرار جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة. ومن الناحية المعمارية والفنية لا يختلف هذا الجامع في تصميمه وزخرفته عن جامع قرطبة الشهير[٢٣] .

يتبع هذا الجامع في تخطيطه العام تخطيط جوامع الشرق الإسلامي، حيث جاء تصميمه عبارة عن صحن أوسط مربع المسقط تتوسطه فسقية الوضوء وتحيط به ثلاثة أروقة أكبرها رواق القبلة، وللجامع مئذنة مربعة المسقط بالجهة الشمالية الغربية. يشتمل رواق القبلة على اثنتي عشرة بائكة متعامدة على جدار القبلة، محمولة على دعامات وأعمدة ترتكز عليها عقود على هيئة حدوة الفرس متجاوزة ومنكسرة وأخرى متعددة الفصوص، وهناك مجاز قاطع أكثر اتساعاً عن بقية بلاطات الرواق يمتد من الصحن حتى المحراب، كما يتميز المحراب بالقبة متعددة الأضلاع التي تعلوه . ويطل رواق القبلة على الصحن ببائكة موازية لجدار القبلة تتكون من خمسة عقود على هيئة حدوة الفرس ماعدا العقد الأوسط منها فهو عقد زخرفي متعدد الفصوص. أما الرواقان الجانبيان الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي، فتعتبر بائكاتهما امتداداً لبائكات رواق القبلة. وتنتشر الزخارف الجصية في أماكن متعددة بالجامع أهمها تلك التي نراها على المحراب الرئيس حيث تنوعت تلك الزخارف ما بين نباتية وهندسية ونقوش كتابية بالخط الكوفي، وأهم ما يميز المحراب القبة المضلعة التي تعلوه بمقرنصاتها الزخرفية بالإضافة إلى نوافذها ذات الأحجبة الجصية المعشقة بالزجاج الملون، وكلها عناصر زخرفية جُلبت من الشرق وأُدخلت إلى بلاد المغرب عن طريق المرابطين، أو نُقلت بواسطة بنو حماد أو الأندلسيين الذين كانت تربطهم علاقات قوية بالخلافة الفاطمية، وإلى جانب ذلك فإن هذا الجامع يُعد مثالاً حياً على استمرارية تأثير العمارة الأندلسية خاصة في أنواع العقود وبعض العناصر الزخرفية [٢٤] .

٢/٢ مسجد سيدي بلحسن

يقع بالقرب من الجامع الكبير، وقد تأسس سنة ٦٩٦ه/١٢٩٦م على يد الأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان يغمراسن بن زيان، واكتمل بعد وفاته كما تدل على ذلك الكتابة المنقوشة على لوح رخامي مثبت على الحائط الغربي لقاعة الصلاة، وقد شُيد هذا المسجد حسب تخطيط لم يكن مألوفاً في تصميم الجوامع والمساجد في

---

[٢٢] تقي الدين بن زيد الخزاعي، تحفة الراكع والساجد، ص١١٨ .

[٢٣] Bargès (J.J.L), Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom, Paris : Duprat, 1859, p.56 .

[٢٤] Bourouiba (R.), L'art religieux muslman en Algerie, Alger, S.N.E.D 1981, p. 115 .

ذلك العصر سواء في شرق العالم الإسلامي أو غربه حيث يتميز بغياب الصحن واقتصر فقط على قاعة الصلاة التي تشتمل على بائكتين محمولتان على أعمدة رخامية ترتكز عليها عقود منكسرة تحصر بينها ثلاث بلاطات، وأهم ما يميز هذا المسجد النواحي الفنية الزخرفية وخاصة الكائنة على جدار القبلة حيث زخارف المحراب المتنوعة من نقوش كتابية كوفية وزخارف نباتية دقيقة تمثل خصائص الفن المغربي– الأندلسي، وكذلك التأثيرات المشرقية المتمثلة في النوافذ ذات الأحجبة الجصية المفرغة. أما مئذنة المسجد والتي تحتل الركن الجنوبي الشرقي فقد بُنيت من الآجر على هيئة مربعة محاكية في ذلك المآذن المغربية، وقد زُينت واجهاتها الأربع بسلسلة من الإطارات المستطيلة التي تملأ بعضها شبكة من المعينات المنحنية الأضلاع وبعضها الآخر عقود مفصصة. ويُعد مسجد سيدي بلحسن أحد العمائر الدينية التي تنتمي إلى حد كبير إلى العمارة المغربية والأندلسية [٢٥] .

٣/٢ جامع سيدي بومدين

يقع هذا الجامع ضمن مجموعة معمارية تضم مدرسة وضريح وحمَّام بُنيت في العصر المريني سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، ويعد هذا الجامع من أهم منجزات الفن المغربي – الأندلسي[٢٦] ، ويتبع في تخطيطه الأسلوب المتبع في تخطيط جوامع الشرق الإسلامي حيث يتكون مسقطه العام من صحن أوسط مستطيل المسقط مكشوف تتوسطه فسقية للوضوء ويحيط به أربعة أروقة أكبرها وأهمها رواق القبلة، ويغلق على باب الجامع مصراعان خشبيان مصفحان بألواح من النحاس المزخرف بطريقة الحز وهو في ذلك متأثر بأبواب المساجد والجوامع المشرقية. يتكون رواق القبلة من خمس بلاطات تفصل بينها أربع بائكات تسير موازية لجدار القبلة ترتكز عقودها الأندلسية على دعامات يزين أعلاها زخارف الأرابسك، ويقطع الرواق مجاز قاطع يمتد من الصحن حتى جدار القبلة وهو أيضاً تصميم مشرقي موجود بمسجد أبو دولف بسامراء بالعراق منذ القرن الثاني الهجري/ التاسع الميلادي . ويتميز المحراب الرئيس للجامع بتجويفته المضلعة والقبة التي تعلوه وكذلك النوافذ ذات الأحجبة الجصية المفرغة التي تعلوه بالإضافة إلى الزخارف الجصية المتنوعة مابين نباتية وهندسية ونقوش كتابية بخط النسخ الأندلسي والكوفي المورق. وبالركن الشمالي الشرقي للجامع مئذنة مغربية الطراز ذات بدن مربع المسقط يكسو بدنها بلاطات خزفية كما يتوج أعلاها شرافات مسننة متأثرة بالشرافات التي تحلي واجهات مساجد الشرق الإسلامي .

---

[٢٥] رشيد بورويبة، فن الدين الإسلامي في الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب ١٩٨١، ص١٠٨-١٢٩.

[٢٦] رشيد بورويبة, مساهمات الجزائر في الهندسة المعمارية العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجزائرية ١٩٥٦, ص٩٦.

٤/٢ جامع سيدي الحلوي

بناه السلطان أبو عنان فارس المريني عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، خلال فترة استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط، وهو بذلك من بين آثارهم في عاصمة الزيانيين[٢٧] ولكنه يحمل خصائص العمارة المرينية. يتبع الجامع في تخطيطه العام تخطيط مساجد شرق العالم الإسلامي، فهو عبارة عن صحن أوسط مربع المسقط تتوسطه فسقية ويحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على أربع بائكات تسير عقودها عمودية على جدار القبلة ويطل على الصحن ببائكة موازية لجدار القبلة تتماثل مع بائكة أخرى تتقدم نفس الجدار جهة الشمال، وترتكز عقود البائكات على أعمدة رخامية ودعامات مستطيلة المسقط، وهو متأثر في ذلك بمساجد شرق العالم الإسلامي. أما محراب الجامع فهو عبارة عن دخلة سداسية الأضلاع تعلوها قبة مضلعة محمولة على مقرنصات في الأركان وهو في ذلك ينتمي للطراز المغربي الأندلسي، هذا وترتفع مئذنة الجامع بالركن الشمالي الغربي وهي تشبه مئذنة جامع سيدي أبي مدين [٢٨].

٣- التأثيرات الفنية المتبادلة بين عمائر الشرق والغرب الإسلامي

كان لارتباط كل من مدن الشرق وخاصة القاهرة ودمشق مع مدن الشمال الأفريقي بأواصر تاريخية وسياسية ترجع إلى ما قبل حكم الفاطميين له أثر واضح في وجود تأثيرات معمارية متبادلة بينها إلى جانب التعاون العلمي والسلمي منذ أقدم العصور، ومما لا شك فيه أن الفنيين المصريين الذين أمر الخليفة الأموي مروان بن عبد الملك بإيفادهم إلى شمال أفريقية لبناء ميناء تونس وكذلك دار الصناعة هناك[٢٩] ، قد تركوا بصماتهم الفنية المعمارية والزخرفية في تلك البلاد والتي تعتبر نواة تأثرت بها عمارة وفنون الشمال الأفريقي بصفة عامة، بينما بدأت التأثيرات الفنية المغربية تتدفق على مصر ومن ثم مدن الشرق الإسلامي منذ أن دخلها الفاطميون سنة ٣٥٨هـ /٩٦٨م ، فقد كان للتبادل الثقافي بين القطرين من خلال رحلات العلماء المغاربة إلى القاهرة وغيرها طلباً للعلم، وأيضاً رحلاتهم أثناء مواسم الحج وما سجلوه من وصف للبلاد والتراث أثر كبير في استفادتهم وإفادتهم في مختلف المجالات[٣٠] . وما من شك في أن عدداً من هؤلاء الوافدين تجاراً كانوا أم علماءً كانت له خبرة

---

[٢٧] رشيد بورويبة، جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة، العدد ٢٦، ص١٧٦.

[٢٨] Bourouiba (R.), L'art religieux muslman en Algerie, p. 160-176 .

[٢٩] البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، بدون تاريخ، ص٣٨ .

[٣٠] حسن عبد الوهاب، الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، بحث في المؤتمر الرابع للآثار العربية، تونس ١٩٦٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٦٠ .

في فنون البناء والزخرفة، ولا نستبعد أن يكون من بينهم من شارك في أعمال كهذه وترك بصماته فيما أقيم من منشآت، ولا يجب أيضاً أن ننسى أن الجيش الفاطمي في مصر كان يضم أعداداً كبيرة من أهل أفريقية وأن بعض هؤلاء الجند كان مُلمًّا بأصول البناء أو مدرباً على فنون الزخرفة، وهذا يفسر كيف أن بعض المظاهر الفنية المغربية تظهر بوضوح في كثير من المنشآت الدينية التي أقامها الفاطميون في القاهرة وغيرها من مساجد ومشاهد[٣١] .

ولما كانت الدولة الفاطمية من إحدى الدول التي تعاقبت على حكم شمال أفريقية وظلت تحكمها حكماً مباشراً من سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م حتى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ، وتأسيس الفاطميين لكل من مدينتي المهدية سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، والمنصورية سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، فقد كان من المفروض أن يحمل الخليفة المعز لدين الله معه إلى القاهرة أساليب العمارة والزخرفة التونسية سواء التي ترجع إلى هذا العصر أو التي ترجع إلى ما قبل ذلك، ومن هنا كانت هناك تأثيرات مغربية معمارية على عمائر القاهرة الفاطمية سواء في تخطيط العمائر الدينية أو اقتباس لبعض من العناصر المعمارية والتفاصيل الزخرفية [٣٢] .

وفي الوقت الذي تأثرت فيه المساجد المغربية بالتخطيط العام لمساجد الشرق الإسلامي من حيث اشتمالها على صحن أوسط مكشوف تحيط به الأروقة، نجد أن مساجد القاهرة الفاطمية وغيرها قد تأثرت بمساجد شمال أفريقية إلى حد كبير، وذلك باقتباسها لبعض العناصر المعمارية وكذلك الزخرفية، وتمثلت أهم مظاهر الاقتباس من الناحية المعمارية في عناصر بعينها تدخل في تخطيط المسجد ونعني بها كل من المجاز القاطع الذي يربط ما بين الصحن والمحراب برواق القبلة وكذلك القبة التي تعلو المحراب، فضلاً عن القبة بنهاية المجاز القاطع المطلة على الصحن والمعروفة بقبة البهو، بالإضافة إلى الرواق المضاف حول الصحن، تلك العناصر التي ظهرت في العمارة الإسلامية لأول مرة في تخطيط كل من مسجدي القيروان والزيتونة، ونرى هذا التأثير بوضوح بالغ بكل من الجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله حيث نُفذت بهما تلك العناصر في عهد الخليفة الحافظ لدين الله ٥٢٦ – ٥٤٤ هـ/١١٣٢ – ١١٤٩م [٣٣] . وقد استُخدم المجاز القاطع بمساجد تلمسان وكذلك الرواق المحيط بالصحن فضلاً عن القبة التي تعلو المحراب والتي نُفذت بأسلوب متطور عن مثيلاتها بالمساجد المشرقية .

١/٣ التأثيرات الواقعة على مداخل المساجد

---

[٣١] السيد عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، الطبعة الأولى ١٩٩٢، بيروت– دار الغرب الإسلامي، ص٤٣١ – ٤٣٣ .

[٣٢] حسن عبد الوهاب، الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، ص٣٦٢ .

[٣٣] المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، دار صادر–بيروت طبعة جديدة بالأوفست، د.ت.، ج٢، ص٢٧٣ .

إلى جانب التأثير المغربي في تخطيط المساجد القاهرية، اقتبس معمار هذه المساجد الأخيرة فكرة المدخل البارز بالجدار المقابل لجدار القبلة، متأثراً في ذلك بمدخل جامع المهدية بشمال أفريقية والذي شُيد على غرار أقواس النصر الرومانية التي كانت منتشرة في شمال أفريقية والمغرب في ذلك الوقت، وقد استُخدم هذا النوع من المداخل فيما بعد بجامع سيدي بومدين وجامع سيدي الحلوي بتلمسان، أي أن هذا النوع من المداخل ظهر أولاً بشمال أفريقيا ثم انتقل إلى الشرق الإسلامي ثم إلى مدن الغرب ومنها مدينة تلمسان، وتجدر الإشارة إلى أن تأثير مدخل جامع المهدية على مدخل جامع الحاكم يعتبر تأثيراً جزئياً تناوله معماريو وفنانو القاهرة بالإضافة والتطوير[٣٤] .

أما زخرفة مداخل المساجد فيرجع بداية ظهورها في العمارة الإسلامية إلى شمال أفريقية حيث ظهرت هذه الزخارف لأول مرة بجامع القيروان، وانتشرت بعد ذلك على مداخل مساجد شرق العالم الإسلامي وغربه على السواء مع ملاحظة تغلب الطابع الفني المحلي على أسلوب الزخرفة في كل من مدن الشرق والغرب[٣٥].

٢/٣ التأثيرات المتبادلة في زخارف الواجهات

تأثرت واجهات مساجد القاهرة بصفة خاصة بزخارف واجهات المساجد المغربية التي بالغ الفنانون في زخرفتها بشتى أنواع الزخارف ويظهر ذلك جلياً بواجهة جامع بومدين بتلمسان، وقد تأثرت واجهات مساجد القاهرة بصفة خاصة بهذه الفكرة، وتجلى ذلك بشكل متطور بواجهة جامع الأقمر بالقاهرة فإلى جانب النقوش الزخرفية بهذه الواجهة استُخدمت العقود متعددة الفصوص في تزيينها، ذلك العنصر الذي استُخدم من قبل بجامع الزيتونة بتونس، ثم استُعمل بعد ذلك بكل جوامع تلمسان، وجدير بالذكر أن هذا العنصر يُرجعه البعض إلى تأثير أندلسي[٣٦] ، كما أن هناك تأثير أندلسي آخر يتمثل في أشكال التوريق في الزخارف النباتية الموجودة بأعلى واجهة جامع الأقمر أيضاً وهي تأثيرات ظهرت بجامع قرطبة منذ أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي[٣٧] .

---

[٣٤] دائرة المعارف الإسلامية، كتاب الشعب، المجلد الخامس، العدد التاسع والثلاثون، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشناوي، د. عبد الحميد يونس، يونيو ١٩٧١، ص٤٧٩ .

[٣٥] عادل محمد زيادة، الزخارف على العمائر الدينية الفاطمية بالقاهرة وتونس دراسة مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار- جامعة القاهرة ٢٠٠٤، ص٢٤٦ .

[٣٦] السيد عبد العزيز سالم، من جديد حول التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية، مقال منشور في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الحادي والعشرون ١٩٨١ – ١٩٨٢، ص٣٤ .

[٣٧] أحمد عبد اللطيف حنفي، الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة طنطا ١٩٧٨، ص٦١١ .

وقد وقع تأثير مغربي على جوامع القاهرة منذ العصر الفاطمي مروراً بالعصر المملوكي، يتمثل في تزيين واجهات المساجد بإزارات كتابية بالخط الكوفي والنسخ، وقد اقتُبس هذا الأسلوب في الزخرفة من مسجد أبي فتاتة [٣٨] بمدينة سوسة التونسية الذي يرجع تاريخه لسنة ٢٢٣ه/٨٣٨م والذي يُعد أول مسجد في الإسلام تزين واجهته نقوش كتابية بالخط الكوفي، فضلاً عن أنه يعتبر أول مثال بعد قبة الصخرة ٧٢هـ/٦٩١م لمسجد يحتوي على كتابة تاريخية تمثل عنصراً زخرفياً متكاملاً [٣٩] .

٣/٣ التأثيرات الواقعة على محاريب المساجد

لعبت زخارف المحاريب في العمارة الدينية المغربية دوراً كبيراً في تاريخ الفن الزخرفي، فقد تضافرت جهود الفنانين في تزيين هذا الجزء من المساجد حتى أخرجوه في أبهى صورة من صور الجمال، ويرجع الفضل لفناني غرب العالم الإسلامي في ابتكار أسلوباً زخرفياً اتُخذ أنموذجاً لكل محاريب شمال أفريقية والمغرب ثم انتقل بعد ذلك لمعظم محاريب المساجد في شرق العالم الإسلامي، ونقصد بذلك الإطار المستطيل الذي يحيط بعقد المحراب وكوشتيه إضافة إلى استعمال عقد حدوة الفرس المتوج لواجهة طاقية المحراب نصف الكروية [٤٠] .

وقد سارت زخارف المحاريب في مساجد مدن الغرب الإسلامي في اتجاهين: اتجاه اتخذ محراب جامع القيروان كأنموذج له في شكل تجويفته نصف الدائرية، وكذلك عقد حدوة الفرس المتوج لها والمحمول على عمودين في الجانبين، وكان في شكله التخطيطي العام على هيئة أقواس النصر الرومانية، وقد اتبعت كل المحاريب المغربية هذا الأسلوب، والاتجاه الثاني هو زخرفة حنية المحراب بأشكال دخلات محرابية صغيرة تشتمل على زخارف نباتية وهندسية في الوقت الذي زُينت طاقيته بمحارة زخرفية مشعة الأضلاع، وهي تتبع في ذلك محراب جامع المهدية بتونس [٤١] . وكما انتقلت فكرة زخرفة المحاريب إلى مساجد القاهرة وغيرها فقد عرفتها أيضاً مساجد مدينة تلمسان التي تميزت إلى جانب زخارفها بوجود قبة تعلوها كانت خوذتها في الغالب متعددة الأضلاع، وهي تعد تطوراً لنصف القبة المضلعة التي تعلو محراب جامع القيروان، وهو نفس التطور الذي أدخله المعماريون على معظم محاريب المساجد المغربية .

---

[٣٨] يقع هذا المسجد بمدينة سوسة على خليج قابس شمالي البوابة الجنوبية للمدينة وقد أسسه أغلب بن إبراهيم الذي حكم من سنة ٢٢٣ – ٢٢٦هـ، انظر: كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص٣٥٢ ، يعتبر هذا المسجد هو ثاني مسجد أقيم في شمال أفريقية بعد جامع القيروان، كما أنه يعتبر النموذج الذي أُنشئ على نمطه الجامع الكبير بسوسة سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م . انظر: كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢، ص١٤٤-١٤٥ .

[٣٩] كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، ص١٤٥ .

[٤٠] عادل محمد زيادة، الزخارف على العمائر الدينية، ص٢٥٢ .

[٤١] عبد العزيز الدولاتلي، الزيتونة عشرة قرون من الفن المعماري التونسي، المعهد الوطني للتراث، تونس ١٩٩٠، ص٩٢ .

وقد اتبعت محاريب مساجد القاهرة ودمشق الشكل التقليدي لمحاريب شمال أفريقية حيث تكوّن من حنية نصف دائرية تتوجها نصف قبة ولكن يتصدرها عقد مدبب – بدلاً من عقد حدوة الفرس – يرتكز في جانبيه على عمودين[٤٢] ، وقد حرص فنانو المشرق الإسلامي على تطوير هذا الشكل مع احتفاظه بالمظهر التقليدي حيث أحيطت حنية المحراب بإطار مستطيل نُقشت عليه الزخارف والكتابات الكوفية على هيئة ستاراً مزركشاً ينسدل من فوق المحراب على جانبيه [٤٣] . و لم يقف التطور في زخارف المحاريب عند حد الإطار الزخرفي المشار إليه، بل حدث تطور آخر يتمثل في تحويل نصف القبة التي تمثل طاقية المحراب إلى شكل محاري تتشعع أضلاعه من دائرة تتوسط مركز العقد، متأثر في ذلك بزخارف المحاريب التونسية ومتطور عنها في الوقت ذاته، ويغلب على الظن أن أنصاف القباب المضلعة التي استُخدمت في تتويج المحاريب المشرقية والتي كانت الأصل الذي تطورت عنه المحارات المشعة هي في الواقع اقتباس من المقرنصات المقصوصة في القباب المضلعة التي كانت منتشرة في العمارة المغربية [٤٤] .

٤/٣ القباب والتأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب الإسلامي

استخدم معماريو المغرب الإسلامي القباب في عمارة مساجدهم وجعلوا منها عنصراً مميزاً لفن العمارة الإسلامي ببلادهم، وإذا كانت بلاد الفرس هي الموطن الذي نشأت فيه القباب[٤٥] فإنها قد تطورت على أيدي المعماريين المسلمين الذين حرصوا على إيجاد موضوعات إنشائية وزخرفية تميزت بها قبابهم فخضعت عناصرها لمبادئ مختلفة عن مبادئها الأولى، وقد اشتهرت المساجد المغربية بالقباب المضلعة التي تعلو المحاريب والتي اقتبسها معماريوها من عمارة شرق العالم الإسلامي حيث أن أقدم مثل للقباب المضلعة بالذات في العمارة الإسلامية كانت قبة حمام الصرح ويليها مباشرة قبة قصر الأخيضر، ثم يأتي المثل التالي في التاريخ لقبة محراب جامع القيروان والتي من خلالها انتشر استعمال هذا النوع من القباب في بقية مساجد المغرب والأندلس ليقتبسها الفاطميون بعد ذلك وينقلوا استعمالها بالمساجد والمشاهد بكل من مصر وبلاد الشام [٤٦]. وقد اعتبر الباحثون أن القباب المضلعة بمساجد ومشاهد القاهرة مقتبسة من القباب المضلعة في المغرب الإسلامي، مع ملاحظة أن فناني القاهرة عندما اقتبسوا فكرة إنشاء القباب في عمائرهم آثروا أن يضفوا عليها مزاجهم الفني الذي ميّزهم عمن سواهم، وتجدر الإشارة إلى أننا لا نستطيع أن نضع مقياساً لتطور القباب تطوراً تاريخياً بين المغرب والمشرق، وإلا سنلحظ أن

---

[٤٢] أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها العصر الفاطمي، ج١، دار المعارف المصرية ١٩٦٥م، ص١٥٩ .

[٤٣] عادل محمد زيادة، الزخارف على العمائر الدينية، ص٢٥٦ .

[٤٤] أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ص١٦٠ .

[٤٥] أحمد فكري، مسجد الزيتونة الجامع في تونس، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثاني ١٩٣٦م، ص٩٠ .

[٤٦] محمد حمزة الحداد، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، القبة المدفن نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ١٩٩٣م، ص١٦٠ .

هناك تراجعاً بل تأخراً في مسيرة هذا التطور وذلك لأسبقية التقدم والرقي معمارياً وزخرفياً للقباب المغربية بالرغم من أنها الأقدم تاريخياً عن القباب المشرقية [٤٧] ، وهذا ما يؤكد أن المغرب الإسلامي كان يضم منذ بداية القرن الثالث الهجري طبقة من البناة برعوا في بناء القباب وزخرفتها وتفوقوا على من جاءوا بعدهم في هذا المجال، ونقصد بذلك بناة القباب بالقاهرة ومدن الشرق، حيث نجد أن بداية استخدام تضليع القباب في القاهرة لم يُعرف إلا بعد مرور ما يقرب من مائة وثلاثين عاماً بعد بناء قبة بهو الزيتونة، وكانت أول قبة تتبع هذا الأسلوب هي قبة مشهد السيدة عاتكة بالقاهرة ٥١٤ – ٥١٩ هـ / ١١٢٠ – ١١٢٥م [٤٨] .

٥/٣ المآذن والتأثيرات المتبادلة بين المشرق والمغرب

نشأت فكرة تشييد المآذن في سورية خلال العصر الأموي وقد اشتُقت من أبراج الكنائس السورية ذات المساقط المربعة، ثم انتقل التأثير السوري إلى مآذن المغرب ويتجلى ذلك في مئذنة جامع القيروان التي تُعد أقدم المآذن الإسلامية والتي كانت تحاكي أحد الأبراج الضخمة المربعة بسوريا وقد اتُخذت هذه المئذنة أنموذجاً لمآذن المغرب والأندلس[٤٩] حيث شُيِّد على نمطها مئذنة جامع أشبيلية، كما بُنيت مئذنة جامع قرطبة على نفس النظام سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ثم ساد هذا الطراز المربع للمئذنة في جميع مساجد المغرب والأندلس، ويُستنتج من ذلك أن المآذن الإسلامية الأولى سواء في شرق العالم الإسلامي أو غربه اشتقت جميعاً من الأبراج السورية [٥٠] .

ونظراً لتميز الطراز المغربي – الأندلسي في تشييد المآذن والذي أصبح ذو خصائص تميزه عن مآذن الشرق فقد أصبح له أثر واضح على مآذن الشرق التي بدأت تظهر عليها تلك التأثيرات منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وقد ازدادت هذه التأثيرات بسبب تطور الظروف السياسية بين الغرب والشرق خلال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي وخاصة مع مصر وهجرة الكثير من الصناع وأرباب الحرف المغاربة والأندلسيين إلى الشرق حيث توفرت فرصة انتقال تأثيراتهم إلى العمارة المصرية والشامية في عصر المماليك[٥١] فقد

---

[٤٧] أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ص١٦٤ ؛ كمال الدين سامح، تطور القبة في العمارة الإسلامية، مجلة كلية الآداب، المجلد الثاني عشر، ج١، ١٩٥٤، ص١٥، ١٦ .

[٤٨] محمد حمزة، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، ص١٦١ .

[٤٩] Creswell (K.A.C.), The evolution of the minaret, Barlington Magazine, 1926, p. 9 .

[٥٠] السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، القاهرة ١٩٥٩، ص٩ .

[٥١] السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص٢٩ .

ظهرت تأثيرات مئذنة جامع أشبيلية وغيرها من مآذن الموحدين في مئذنة مدرسة المنصور قلاوون، ومئذنتي جـــامع الناصر محمد وجامع سنجر الجاولي بالقاهرة وكذلك مئذنة جامع أحمد بن طولون[٥٢].

الخاتـــــــــــــــــــــمة

لم يمنع غلبة الطابع السياسي الذي كان يربط بين مدينة تلمسان والقاهرة وغيرها من مدن الشرق من وجود الجانب الثقافي، فقد كانت تلمسان والقاهرة على وجه الخصوص من أهم مراكز الإشعاع الثقافي ببلاد المغرب والمشرق الإسلاميين بفضل ما شُيد بها من مؤسسات دينية من مساجد ومدارس وتخصيص الحكام لجزء من الدخل القومي لخدمة النشاط الثقافي والإنفاق عليه، وقد كشفت العلاقات المغربية المشرقية سياسياً وثقافياً عن كثير من المميزات والمظاهر الحضارية بكل من تلمسان والقاهرة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين وإذا كانت العلاقات السياسية قد تأرجحت بين التأزم والانفراج وخضعت لعوامل موازين القوى في بلاد المغرب عموماً ودور السلاطين في ذلك، فإن الروابط الثقافية كانت بعيدة نسبياً عن المؤثرات السياسية، وخضعت لجملة من العوامل التي ساهم فيها الحكام والعلماء والطلبة والحجيج الذين كانوا يتنقلون بين المغرب الأوسط و مصر وعملوا على توطيدها وإثرائها، وقد أكدت تلك العلاقات إلى جانب التأثيرات المتبادلة في العمارة الدينية وغيرها على مدى التقارب الحضاري الذي كان موجوداً بين المدن الإسلامية والأقاليم المشرقية والمغربية ورغبة حكام هذه المجتمعات في تجسيد الوحدة الإسلامية سياسياً وثقافياً في إطار التنوع والاختلاف بين الآراء والأفكار عبر الامتداد الجغرافي للعالم الإسلامي[٥٣] .

وقد وضحت الدراسة أن التأثيرات المعمارية الدينية بين المنشآت المغربية ونظيراتها المشرقية كانت تأثيرات متبادلة، فقد تأثرت المخططات العامة للمساجد المغربية بمثيلاتها في مساجد الشرق وفي الوقت ذاته كان هناك تأثير جزئي في هذا التخطيط اقتبسته مساجد الشرق من مساجد الغرب الإسلامي مثل الرواق المضاف حول الصحن وقبة البهو والمداخل البارزة . وبينت الدراسة أن هناك تأثير مغربي على أسلوب زخرفة واجهات المساجد المشرقية وذلك باقتباس بعض العناصر الزخرفية مثل الأذرع المشعة والإزارات الكتابية إلى جانب العقود المفصصة . كما قررت الدراسة أن المآذن المغربية اقتُبست في الأصل من أبراج الكنائس السورية ثم انتقلت تأثيراتها فيما بعد إلى مآذن مدن المشرق الإسلامي . وأخيراً وضحت الدراسة أن المحاريب المغربية كان لها بعض الأثر على طريقة

---

[٥٢] السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص٣٠ .

[٥٣] عبد الرحمن بالأعرج، الجديد في العلاقات السياسية والثقافية بين الجزائر الزيانية ومصر المملوكية، (بتصرف من الباحث)
http://www.9alam.com/forums/showthread.php/23135

زخرفة المحاريب المشرقية، هذا إلى جانب إثبات أن القباب المضلعة مشرقية الأصل وعندما اقتبسها المغاربة طورها المعماريون من النواحي الزخرفية ومن ثم تفوقت على نظيراتها في الشرق .